

فلسفة سبينوزا

للأستاذ زكي نجيب محمود

— ٢ —

شرحنا في المقال السابق فلسفة سبينوزا الميتافيزيقية التي تلخص في أن في الكون حقيقة واحدة خالدة، هي عبارة عن قانون عام شامل لا ينقص ولا يزيد. هذه الحقيقة الخالدة، أو هذا القانون الشامل، لا يمكن أن يعبر عن نفسه ويفصح عن حقيقته إلا بواسطة الأجسام المادية، فاتخذ من تلك المادة التي تملأ جوانب الكون، قوالب وأشكالاً لكي يبرز عن طريقها إلى عالم الواقع المحسوس، وهذه الصور والأشكال المادية التي تتخذ وسيلة للتعبير عن ذلك القانون الخالد، لا تظل على هيئة خاصة معينة، فهي متغيرة متبدلة أبداً، بل قد تزول وتفتي، ولكن تلك الحقيقة نفسها باقية خالدة لا تفتي ولا تزول، بل لا تنقص ولا تزيد، وهي لا تفتأ تلبس هذا الثوب المادى وتخلع ذاك إلى أبد الآبدين. وذكرنا أن ذلك القانون الأعلى وهذه الطبيعة شيء واحد لا يقبل التجزئة ونزيد في هذا المقال أن تناول بالشرح الموجز فلسفته الأخلاقية والسياسية إتماماً للبحث:

١ — الذكاء والأخلاق

للاخلاق فلسفة متضاربة متناقضة، فهذا الفيلسوف يدعو إلى نظام أخلاقي معين، وذلك يروج لنقيضه، وثالث يقف بين بين، يأخذ من هذا وذاك بمقدار. فهذه المسيحية تبشر بفضائل الاستكانة والتواضع، وتدعو الناس إلى العطف والرحمة والآثار، وتعلم الناس أنهم جميعاً سواسية لا يمتاز رجل على رجل، ترد الشر بالخير، وتميل في السياسة إلى الديمقراطية المطلقة من كل القيود، وهي تعتبر المحبة أساس الفضيلة... وذانكم مكيا في و نيتشه يدعو الناس إلى التخلق بأخلاق الرجولة القوية الصحيحة، وينكران المساواة بين الناس، فمنهم الضعيف ومنهم القوى، وفيهم العبقري الفيلسوف وفيهم الغبي الأبله، ويحفزان الناس إلى نبذ السلم والمغامرة في معمعان العراك والقتال ليحرز النصر من هو جدير بالنصر، وليترفع على الحكم من يستحق الحكم والسلطان، والفضيلة عندهما هي القوة، ويميلان في السياسة إلى الاستبداد والارستقراطية الوراثية، فكيف لا يصرح في كتابه « الأمير » بكل جرأة: « أن الأمير الذي يريد حفظ كيان دولته، لا بد له في كثير من الأحيان أن يخالف الذمة

والمروءة والأنسانية والدين » كما يجذب نيتشه سياسة بسمارك التي تنحصر بالحديد والدم.

وبين هذين النقيضين يقوم نظام أخلاقي وسط بين حب المسيح وقوة نيتشه، دعا إليه أرسطو، ومؤداه المرجح بين أخلاق الضعف وأخلاق القوة، ويريد أن يلقي بزمام الأمر إلى العقل المثقف الحكيم، فهو وحده الذي يصح أن يؤتمن على اختيار الأخلاق الملائمة للواقف المختلفة، فهو يعرف متى يلبس لبوس الحنان والعطف، ومتى يتنمر ليفترس، ومعنى ذلك أن الفضيلة عند أرسطو هي الذكاء، ويميل في السياسة إلى مزيج من الارستقراطية والديمقراطية

ثم جاء سبينوزا فأخذ ينسج من هذه الصور وحدة خلقية متناسقة. وهو في هذا يسير سيرا منطقياً دقيقاً حتى ينتهي إلى نتائج التي يقدمها، فهو يبدأ بتقريره أن السعادة هي الغرض المقصود من الأخلاق الفاضلة. ولما كان ما هي هذه السعادة التي تنتجها ونقصد بها؟ هي عنده في بساطة لا لبس فيها ولا غموض: وجود السرور وارتفاع الألم. ولكننا نعود فنقول: وما السرور والألم؟ أما حالتان معينتان؟ أم هما نسيان يخلفان باختلاف الأشخاص؟ هنا يجيب سبينوزا بأنهما ليسا حالتين، أي ليس ثمة حالة مستقرة يقف عندها المرء قائلاً: هنا السعادة، وهناك الألم. إنما السعادة شعور بانتقال النفس إلى درجة أدنى إلى الكمال، والألم شعور بانتقالها إلى مرتبة أبعد عنه. ولما كان الكمال عنده هو القوة، لا قوة نيتشه الغاشمة العمياء التي تقوم على الغريزة الوحشية، ولكنها القوة العقلية المتزنة. فكلمنا درجت صاعداً في سبيل هذه القوة العقلية كنت أقرب إلى الكمال، وكنت بالتالي سعيداً مطمئناً النفس. ومعنى هذا أن العواطف والمشاعر المختلفة هي مسالك أو طرق تسير فيها النفس، مقبلة نحو القوة تارة، مدبرة عنها طوراً. (لاحظ العلاقة بين كلمتي passion و passion. وكذلك بين كلمتي motion و emotion لتدرك العلاقة القوية في اللفظ بين ألفاظ الحركة وألفاظ العواطف والمشاعر. ومثل هذه العلاقة موجودة أيضاً في اللغة الفرنسية) فالفضيلة والقوة عند سبينوزا شيء واحد، أي أن الفضيلة هي زيادة فاعلية النفس التي تعمل على حفظ البقاء. وكلما اتسعت مقدرة الإنسان على حفظ وجوده ازداد ما يتحلى به من فضيلة. وبعبارة أوضح يعتقد سبينوزا أن أساس الفضيلة هي الأنانية المعتدلة التي تعينك على الاحتفاظ بوجودك، وهو لا يرى في حب الشخص لنفسه ضرراً يلحق بالآخرين. واذن فلا خير في أن تضحي بنفسك من أجل غيرك إلا إذا كان في ذلك قوة لك،

وهكذا يجب أن يحب كل انسان نفسه ، وان يلتمس كل وسيلة تمكنه
تأخذ بيده الى مرتبة أدنى الى الكمال

فأنت ترى من ذلك أن سينيوزا لا يبني الأخلاق على الايثار
والخير الطبيعي ، ولا على الأنانية البشعة والشر الطبيعي ، ولكن
على انانية معقولة لا يجد منها مفرا لحفظ البقاء . وعنده أن هذه
الأنانية المعتدلة التي يملها منطق الحياة نفسها لا يمكن أن تباعد بين
مصالح الأفراد ، أو تبذر بذور البغضاء في النفوس ، لذلك تراه لا
يتألك نفسه حيرة في هذا التحاسد والتناوب والكراهية ، وهو يأس
من أن يبرأ المجتمع من علله وأمراضه قبل أن يهذب الناس من
هذه العواطف ويصلحوها ، وهو ينصح لنا أن نبادل أعداءنا حبا
بكره ، ذلك لأن الكراهية تنمو وتتغذى اذا وجدت لها صدى من
كراهية مثلها في نفوس الآخرين . وهو بمحاربة هذا التباغض ،
ينشد فينا النخوة الحق والرجولة الصحيحة ، فأنت حين تشعر
بالكراهية نحو غيرك ، فانما يكون ذلك اعترافا صريحا منك
بانحطاطك دونه وخوفك منه ، لأنك لا تكره عدوا تثق بأنك
تستطيع أن تغلب عليه في سهولة وتدحره في غير عناء .

واذا كانت عواطفنا الغريزية كما نرى حائرة السبيل يعوزها
الدليل الأمين ، فلا يجوز إذن أن نلقى بزمامنا اليها ، انما يجب أن
يكون الفكر وحده رائدنا ، ولكن سينيوزا لا يريد أن نكبح
الغرائز جملة واحدة ، لا بل نستغلها ونأخذ منها دافعا يسوقنا تحت
سيطرة العقل واشرافه ، فتكون هي بمثابة قوة البخار الذي يدفع
القطار ، ويكون العقل بمثابة السائق الذي يتحكم في سيره ووقوفه ،
وحجته في عجز الغرائز وحدها عن القيادة ، انها متضادة الأغراض
متضاربة المقاصد ، فاذا ماتركناها على سجيئها ، انطلقت كل واحدة
تسعى في اشباع رغبتها ، دون أن تراعى صالح الكل ، واذن فلا بد
من رقابة رشيدة تعمل أولا وقبل كل شيء لما فيه خير الشخص
كمجموعة متحدة ، بأن نكبح بعض الغرائز حينما ، ونطلق بعضها
الآخر حينما ، حسب ما يتطلبه الموقف ، ومعنى ذلك كله أن الفضيلة
مرهونة بالمعرفة أو الذكاء

والذكاء وحده هو الوسيلة التي نستطيع بها أن نحرر أنفسنا
من سيطرة الغرائز التي تفرض علينا سلوكا معيناً ، وتعمل جهدها
لقسرها عليه . فنحن عبيد لها بقدر انسياقنا لما تمليه علينا ، أى أن
سلبية العاطفة عبودية للانسان ، وحرية في فاعلية العقل . فالحرية
الشخصية متوقفة على المعرفة ، وفي ذلك يقول ديوى أستاذ الفلسفة
في جامعة كولمبيا بالولايات المتحدة : « إن الطبيب أو المهندس يكون
حررا في فكره وعمله بمقدار ما تتسع معرفته في المهنة التي يباشرها ،

وقد تكون هذه المعرفة مفتاح الحريات جميعا »

بناء على ذلك يكون السوبرمان (الانسان الأعلى) الذي ينشده
سينوزا هو الذي يستطيع أن يحرر نفسه من سلطان الغرائز ،
وليس هو الذي يتخلص من القيود الاجتماعية العادلة كما صورته
نيتشه . يقول سينيوزا : « ان من يعملون الخير بناء على ارادة العقل ،
ويلتمسون النفع الذي يدل عليه المنطق الصحيح ، هؤلاء في الواقع
ينشدون مع خير أنفسهم صالحا للانسانية عامة » فلا أن تكون
عظما لا يعنى أن تضع نفسك فوق مستوى البشر لتتشبأظفارك
في أعناقهم كما يريد نيتشه ، ولكن العظمة هي أن ترفع عن سخف
الرغبات الغريزية ، التي لا يشرف عليها عقل متزن حكيم ، ليست
العظمة في أن تحكم الآخرين ، وانما هي في أن تحكم نفسك

هذه الحرية التي تستطيع أن تنعم بها من السيطرة على نفسك
هي أشرف مما يسمونه حرية الارادة ، لأن الارادة مجبرة مسيرة ،
أو قل ليس ثمة ارادة ما ، لأن الارادة والفكر وجهان لحقيقة
واحدة . وهنا يلاحظ سينيوزا أن ليس في جبر الارادة نقيصة
يؤسف عليها ، بل هو يهذب الأخلاق ويسمو بها الى مستوى رفيع ،
فهو يعلمنا ألا نتحرق انسانا ، كائنا ما كان موضعه من المجتمع ، لأنه
غير مسئول عن ذلك الموضع ، انما كتبت لها لارادة العليا أن يكون
حيث هو . والجبر كذلك يوحى اليها الرضى عما قد يديه الدهر من
قسوة وغلظة ، لأننا نعلم أنه ان ظلم وجار في ناحية معينة ، فلا بد
أن يكون ذلك لصالح الكل ، مادامت الأفراد جزءا من جسم
الوجود المتحد

٢ — الرسالة السياسية

كان صوت سينيوزا واحدا من تلك الأصوات التي انطلقت
تصيح بحرية الانسان . ففي نفس الوقت الذي كان فيه (هوبز) يدافع
عن الملكية في انجلترا ، ويقاوم بنظريته قوة الشعب الانجليزي التي
أخذت تناهض استبداد الملك ، كتب سينيوزا فلسفته السياسية ،
وهي تعبر تعبيرا صادقا عن الديمقراطية التي بدأ يخلق حلها الجميل
في نفوس الناس عندئذ ، والتي أخذت تنمو وتنمو حتى بلغت
ذروتها عند روسو ، ثم تدفقت ثورة عنيفة في فرنسا

يقدم سينيوزا بادی الامر هذه البديهية التي لا تحتمل الشك ،
وهي ان الانسان في أول نشأته كان يعيش منفردا غير مجتمع ،
فلا يرتبط مع غيره بقانون ولا نظام ، لا يفهم معنى للحق الا
ما يستطيع أن يستولى عليه بالقوة ، واذن لم يكن ذلك الانسان
الأول يدرك معنى للخير والشر ، لأنهما عبارتان اصطلاح عليهما

بعد تكوين المجتمع ، اذ اطلقنا على بعض الأعمال التي تواضع عليها الأفراد ، أما قبل ذلك فكان الفرد يتصرف حسب ما تملى عليه شهوته ، وبالطبع لم يكن مسؤولاً عن تصرفاته الا أمام نفسه ، ومعنى هذا أن الجريمة لم يكن لها وجود في الحياة الطبيعية الأولى ، لأنها لا تدرك الا في حالة المدنية ، حيث يتفق الجميع على تحديد الخير والشر ، ويصبح كل انسان مسؤولاً عن ذلك أمام هيئة معترف بها هي الدولة

وأنت تستطيع أن تتمثل الحياة الطبيعية الأولى التي لم تكن تفرق بين الخير والشر ، أو بعبارة أخرى بين ما يجوز عمله وما لا يجوز ، في علاقة الدول بعضها مع بعض ، إذ لا يربطها نظام خلقى معترف به في قوة النظام الذي يربط الأفراد ، ولا تشرف عليها سلطة عامة نافذة الإرادة كما هي الحال بين الأفراد ، لذلك كان الحق في العلاقات الدولية هو القوة (يلاحظ أن اسم الدول العظمى بالانجليزية هو Great powers وفي هذا إشارة صريحة تؤيد هذا المعنى) اذ لا تفهم الدول على وجه الدقة معنى الخير والشر كما يفهمها الأفراد .

كان الناس اذن يعيشون بادی الامر كما تعيش الدول الآن ، ليس لأحدهم عند الآخر حقوق . ولكن لم يلبث الانسان أن شعر بحاجة الى التعاون لدرء ما يتعرض له من الخطر ، فاتفق الأفراد فيما بينهم على أن يتآزروا اذا دهمهم داهم من سوء ، ومعنى ذلك أن الانسان ليس مدنيا بالطبع ، ولكنه اجتمع لدفع أخطار الحياة . وحسبك دليلاً أن تلقى نظرة عجيلى على الغرائز الإنسانية ، لترى كيف أن الغرائز الاجتماعية أضعف جداً من الغرائز الفردية ، فالإنسان يسعى لخيريه أولاً ثم يسعى لخير الدولة ، بل هي الانانية أيضاً التي تدفعه للسعى وراء خير الدولة ، لأنها دولته هو ، ويريد أن يسعد بسعادتها

اضطر الانسان اذن الى الاجتماع بعد تلك الحياة الفردية ، فتواضع الجميع على حدود خاصة لا يجوز لواحد أن يشذ عنها ، بحيث يصبح لكل انسان الحق في أن يتصرف كيف شاء ، دون أن يخرج على تلك الحدود المرسومة ، أى أن له أن يستمتع بكل ماله من قوة شخصية دون أن يغير على حرية الآخرين ، وبعبارة أخرى اتفق الأفراد على أن ينزل كل منهم عن بعض حقوقه الطبيعية لهذه الجماعة المنظمة ، في مقابل أن يأمن ويطمئن على حقوقه الباقية ، أى أن قانون الجماعة يجب ألا تزيد وظيفته على الاشراف العام ، بحيث يسعى كل فرد حراً ، في غير تضارب ولا تنافر بين الأفراد ،

أى أن القانون الكامل يجب أن يكون للأفراد بمثابة العقل للعواطف : يحسن تصرفها بحيث يزيد نشاطها من قوة الكل ، دون أن تعرض واحدة منها لنشاط الأخرى

« فالغرض الاسمى من الدولة اذن ، لا أن تحكم الناس ، ولا أن تحد من مجهودهم ، بل يجب أن تؤمن الانسان من كل المخاوف ، حتى يعيش ويعمل في طمأنينة تامة . . . الغرض من الدولة أن تدع الناس يعيش بعضهم بجانب بعض ، كل يستغل قوته العقلية في صالح المجموعة ، حتى لا تتبدد قواهم في التناوب والتنافر ، اذن فالغرض الاسمى من الدولة هو الحرية »

وظيفة الدولة العليا أن تكفل للأفراد حريتهم ، ومعنى ذلك أن الديمقراطية هي المثل الاعلى لنظام الحكم . ثم يستدرك سينيوزا بقوله أن ضرر الديمقراطية الوحيد هو ميلها الى وضع غير الاكفاء في مناصب الحكم ، ولذلك ينصح علاجاً لذلك أن يتسلم ادارة الدولة جماعة من ذوى العقول الجبارة ، كي يسيروا بها بعيداً عن مواطن الزلل

وافاضت روح سينيوزا وهو يكتب للناس رسالة الحرية
زكى نجيب محمود

ياليتنى...

اذا أطل البدر من خدره

فأنما يطلع كى تنظريه

وان شدا البلبل فى وكره

فأنما يشدو لكى تسمعيه

وان يَفْحُ عطر زهور الربى

فأنما يعبق كى تنشقيه

ياليتنى البدر الذى تنظرين !

ياليتنى الطير الذى تسمعين !

ياليتنى العطر الذى تنشقين !

أواه لو تصدق « ياليتنى » !

إيليا أبو ماضى